مجلة المعجمية - تونس

ع 9-10

1994

الخليل بن أحمد الفراهيدي
ونظريته المعجمية (مشروع قراءة)

بقلم : محمد رشاد الحمزاوي

«من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمشد.» (1)

-1- القضية :

إن الذهنية اللغوية السائدة تنظر إلى المعجم وما وراءه من مفردات ونصوص نظرة استهلاكية بَحتًا، وتعتبره في غالب الوجوه كتاب لغة ومجرد ديوان تجمع فيه مفردات متنوعة، له غايات نفعية ومعرفية وتربوية، دون أن تأخذ بعين الاعتبار منزلة واضعه ورؤاه، وبالخصوص نظريته أو نظرياته وما وراءها من أبعاد علمية وفكرية وحضارية، ومنها السعي إلى الإحاطة بالخطاب الإنساني في وحدته وتنوعه، وفي قراره واستفاره، وفي ثباته وتحوله دون إسقاط ولا إهمال ولا تكرار.

ولقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي العُمَاني (100-175هـ) (2) من أول من بادر في تاريخ الثقافة الإنسانية العامة إلى اقتحام مصاعب تلك المغامرة الرامية إلى سبر كنه الخطاب الإنساني من منطلق عربي، سخرت فيه العربية لتكون مثالا به يقاس، وعلى شواهدها يقنن وينتظم في نطاق نظرية معجمية عربية دولية شاملة (3). فلقد قال فيه

---

(1) مهدي المخزومي : الخليل بن أحمد الفراهيدي - بغداد 196 ص 42.

(2) تتفق الروايات على مولده وتختلف في شأن وفاته،

(3) محمد رشاد الحمزاوي : النظريات المعجمية العربية وسبلها إلى الإحاطة بالفكر العربي - بكتابنا المعجم العربي : إشكالات ومقاربات - تونس 1991 ص 215 - 245.

الصفدي في الوافي بالوفيات «ومن تأسيسه بناء كتاب «العين» الذي يحصرفيه لغة كلّ أمة من الأمم قاطبة» (4). مما يعني أنه كان يرمي إلى وضع معجم مثالي عربي دولي مقياس لايحد رصيده حد. وذلك ما يؤيده الصفدي بقوله «وأظهر فيه حكمة لم تقع مثلها للحكماء من اليونان (5). . فزعم أن مبلغ أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تكرير ينساق إلى إثني عشر ألف ألف وثلاث مائة ألف وخمسة آلاف وأربع مائة واثني عشر*» (6)، مما يفيد أن معجم العربية المنتظر مهيأ لأن يشمل أكثر من اثني عشر مليون كلمة ستجعل من الخطاب العربي خطابا مجنحا صاروخيا علينا أن نتحمل مسؤولية تحقيقه وما وراءها من حضارات رائعة وعجيبة.

فمن هو هذا الرجل الذي تجاوز بفكره الثاقب زمانه ومكانه، واستشرف زمن الحضارة العربية في المستقبل البعيد ؟

-2- الخليل بن أحمد، أصله ومدرسته :

إنه رجل من ذهب ومسك لا يحتاج إلى من يدافع عن علمه وورعه، وتقاه وتواضعه، عاش في خصّ وخصاصة، جاء من عمان وعاش بالبصرة وكانت «واسطة الأرض وغوصة البحر، ومفيض الأقطار وقلب الدنيا . . . وخير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس. . » (7). وهو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي أو الفرهودي اليحمدي الأزدي، مما يشهد بأصله العُمَاني باعتبار نسبه الى أزْدِ

---

(4) الصفدي : الوافي بالوفيات : القاهرة 1411 هـ / 1991م - ج13/ 366.

(5) يرى بعضهم أن الخليل تأثر في وضع معجمه باليونان، أو الهنود. والملاحظ أن أحدا لم يفكر في أن الخليل الرياضي قد وضع معجمه دون الاعتماد على الغير. أنظر Rundgren (F.): La lexicographie arabe, in *Studies on semitic lexicography*, Quaderni di Semitica N:2 FIRENZA 1973.p. 148-152.

(6) الصفدي - الوافي بالوفيات ص 387.

* في نصّ الكتاب «واثني عشر ألفا»، وهو خطأ.

(7) مهدي المخزومي السابق ص 5.

عُمَان (8) الذين لهم صلة وثيقة بأزدسَرَاة.

وينقسم أزد عمان إلى ثلاثة فروع كبرى :

1- بطون هناء وفراهيد وجهاضم ونَوَى وقرادس والجرامیز . . . ويعود نسبهم إلى مالك بن فهم.

2- بطون يحمد وحُدّان والمعاويل . . . ويعود نسبهم إلى نصر بن زهران.

3- بطون العتيق والخضر بن عمران . . . ويعود نسبهم إلى عمران بن عمرو مُزَيقياء.

وكانت قبيلة يحمد تقيم في أول الأمر على الساحل، والمعاويل بصحار، وهميم بنزوى والعتيق بدبا. وكانت نِزْوى مركز الإمامة الإباضية وكان جل أعضائها من بطن يحمد (9). ويروى الصفدي أن رجلا قال للخليل : «من أي العرب أنت ؟ فقال : فراهيدي - وسأله آخر فقال فرهودي. قال المبرد : فراهيدي انتسب إلى فراهيد بن مالك بن فهم بن عبد الله بن مالك بن مضر بن الأزد (10) - وهو يحمدي على مايبدو بصلة الرحم والزواج، وإن كان الصفدي يورد رواية غريبة عن حمزة الأصبهاني في كتابه «التنبيه على حدوث التصحيف» تفيد أن الأزد والخليل فرس. فلقد قال «الخليل بن أحمد الفرهودي ومن الفرس كان أصله لأنه من فراهيد اليمن، وكانوا من بقايا أولاد الفرس الذين فتحوا بلاد اليمن لكسرى. وكان جد الخليل من أولائك. فمن أجل أنّ الخليل كان من الفرس صارت لنا مشاركة في مفاخر العرب بما أثله الخليل لهم» (11). وذلك شأن سيبويه وغيره.

وتوحي إلينا هذه الرواية بجدل الشعوبية ومعاركها لأنها أغفلت أن تفيدنا أن جزءا من أزد عمان قد هَاجرُوا قبل الإسلام إلى الجزر بالخليج العربي وإلى كرمان وفي مقدمتهم قبيلة سليمة بن مالك بن فهم.

---

(8) دائرة المعارف الإسلامية بالانكيزية - مدخل الأزد.

(9) نفس المصدر ص 813.

(10) الصفدي : الوافي ص 388.

(11) نفس المصدر.

ولقد هاجر عدد كبير من أزد عمان إلى البصرة سنة 60-61هـ/ 679-680م ولعبوا دورا أساسيا سياسيا وعسكريا في الخلافتين الأموية والعباسية. وشهد الخليل على دورهم العلمي المتميز. ويرى الزبيدي أنه ولد بعمان ونشأ وترعرع في البصرة (12). فإن أقررنا أنه توفي سنة 175هـ عن عُمُرٍ يُقارب 75 سنة، فإن ذلك يعني أنه ولد سنة 100 للهجرة. وذلك ما يؤيده ابن خلكان في وفيات الأعيان : «وكانت ولادته سنة مائة للهجرة. وتوفي سنة سبعين وقيل خمس وسبعين، وقيل عاش أربعا وسبعين . . . (وقيل) إنه توفي سنة ثلاثين ومائة، وهذا غلط قطعًا»(13).

وهو من مشاهير مدرسة البصرة وأساطينها. أخذ العلم والمعرفة عن مشاهير منهم عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء. ومن تلاميذه مشاهير منهم سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل (14) وهارون بن موسى النحوي ووهب بن جرير وعلي بن نصر الجهضمي. ولقد نسيَت أغلب المصادر تلميذه الليث بن المظفر (15) الوارد ذكره في مقدمة العين بالخصوص : ويهمنا من الخليل أنه كان موسيقيا يشهد بذلك علم العروض، وكان رياضيا مما سيشهد به كما سنرى معجم العين. ولقد روى عنه الصفدي أنه قال «أريد أن أعمل نوعا من الحساب تمضي به الجارية إلى الفَامِيّ، فلا يمكنه أن يظلمها» (16).

---

(12) ويرى الزركلي في الأعلام ج 1 ص 34 أنه ولد وتوفي بالبصرة. ويرى بعض الباحثين أنه من منطقة أدم بسلطنة عمان.

(13) ابن خلكان: وفيات الأعيان - القاهرة 1969 - ج 248/2.

(14) ويرى ابن خلكان في وفيات الأعيان، ج 2/ 245 ان «أكثر العلماء العارفين باللغة يقولون إنّ كتاب العين في اللغة المنسوب إلى الخليل بن أحمد ليس تصنيفه، وإنما كان قد شرع فيه ورتب أوائله وسماه بالعين، ثم مات فأكمله تلامذته النضر بن شميل ومن في طبقته» - وذلك مالا يؤيده الزركلي في الاعلام. وينسب ابن فارس والقالي العين للخليل فيما رويا عنه من اللغة.

(15) كل القرائن تدل على أنه أهم من أسهم في وضع كتاب العين. وليس ذلك بغريب في التقاليد العلمية إذ إنّ الفضل يعود لتلاميذ دي سوسير اللساني السويسري المشهور، في ترتيب دروسه في علم اللغة العام «Cours de linguistique générale» ونشرها.

(16) الصفدي : الوافي بالوفيات ص 386.

إن هذا اللغوي، الموسيقي، الرياضي المعجمي، الأزدي العماني قد ترك لنا معجما يعتبر مصدر المعاجم العربية. وقد ركزه على ما نسميه بنظرية المعجم المثالي، فما يعني بذلك ؟

-3- نظرية المعجم المثالي :

إن النظرية المعجمية الخليلية تعتبر نقلة نوعية في ميدانها. فهي أم الرؤى المعجمية العربية لأنها أولاها على الإطلاق، ولإنها نشأت وتطورت من ميدان الرسائل المفردة (17) والغريب المصنف (18) إلى ميدان المعجم (19) المكتمل نظريًا وتطبيقيًا، فتحولت بالمعجمية العربية من الرواية والسماع إلى تركيزها على معايير لغوية لسانية موثقة مبررة، تنطلق من الوصف الصوتي والبنيوي والمقارنة والمقابلة بين اللغات إلى الاستقراء والإحصاء الرياضي، وغايتها أساسًا الإحاطة بالخطاب العربي ومدى قدرة اللغة على التعبير عن معالم المجتمع ومآثره في الماضي والحاضر والمستقبل.

فهي مؤهلة كما سنرى لتكون نظرية لسانية معجمية كلية (20) غايتها الخطاب الإنساني والمعجم الكوني وخصائصه الثقافية والحضارية. ولقد طبقت على العربية نصًا

---

(17) حسين نصار : المعجم العربي : نشأته وتطوره - القاهرة 1988 ج 1/ 31- 170، حيث يعرف الرسائل المفردة ويضرب لها أمثلة كثيرة في ميادين وعلوم عدة. والرسائل المفردة هي أساس المعجم العربي، إلا أنها كثيرة السلبيات لم تسلم من التكرار والإهمال والإسقاط في جمع المادة المعجمية وترتيبها من أجل المعرفة أو التربية والتلقين.

(18) نفس المرجع ص 33-54.

(19) محمد رشاد الحمزاوي : معجم مصطلحات المعجم، مجلة المعجمية عدد 2، 1986، ص 9-13 حيث تعريف المعجم لغويا ومصطلحيا ووظائفيا.

(20) يستغرب كثير من الباحثين من بروز هذه النظرية المكتملة فجأة، من دون أن يمهد لها مسبقا بمحاولات وتجارب خاطئة أو مصيبة، لا سيما وأن الرسائل المفردة ظلت مستبدة في أيام الخليل وبعده. والملاحظ أن هذه الظاهرة ليست غريبة في العلوم اللغوية العربية، ويشهد بذلك كتاب سيبويه تلميذ الخليل، وقد ظهر كاملا مكتملا دون أن تمهد له في الواقع مؤلفات سابقة له حسب معلوماتنا الحاليّة.

ومدونة (21). والملاحظ في هذا الشأن أنها اعتمدت، في سعيها العربي أو الكوني، على مقاربات منهجية ومفاهيم لسانية متلازمة مترابطة لبناء هيكلها أو نظامها حسب تعبير المحدثين اليوم. وذلك ما يهمنا منها.

فكيف كان ذلك ؟

عرض الخليل لنظريته المعجمية في مقدمة كتاب العين التي اعتمدناها في بحثنا هذا، ووردت في شأن هذا الكتاب آراء كثيرة تتعلق بنسبته للخليل (22). ولقد تخيرنا منها ثلاث رؤى تحيط حسب رأينا بالعناصر الأساسية لتلك النظرية التي كثيراً ما تتمازج فيها المقاربات المنهجية بالمفاهيم المعجمية المتصلة بها. ورأينا من المفيد أن نستخرج، أولا وبالانتقاء، تلك العناصر من الرؤى الثلاث المذكورة، وأن نسعى ثانيا إلى تصور النظرية في كليتها.

فالرؤية الأولى تعتمد على ثلاث مقاربات منهجية وثلاثة مفاهيم : تنطلق المقاربة الأولى - خلافا للرسائل المفردة- من موضوع عام وشامل، وهو اللغة عموماً واللغة العربية خصوصاً، باعتبارها مثالا مطبقا للغة. وهي تضبط بالتالي القضية المطروحة زمانا ومكانا وشمولية وخصوصية، مما يستوجب التقيد بذلك، حتى لا يخرج عن موضوعه الأساسي بالإفراط أو التفريط فقال : «قال الليث : قال الخليل : كلام العربي مبني على أربعة أصناف».

ويوحي باللغة مفهوم الكلام (23) الذي جاء صريحا في القول الخليلي السابق،

---

(21) محمد رشاد الحمزاوي : من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا : دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986 ص، 139-147 حيث يتحدث عن مفهوم «المدونة» عند ابن منظور. وهذا المفهوم أساسي في العلوم عموما وفي علم اللغة خصوصا، ويطلق عليه في اللسانيات الغربية الحديثة لفظة «Corpus».

(22) جلال الدين السيوطي : المزهر ج 1/ 76 - 89 حيث يعرض لهذه القضية.

(23) تركزت نظرية اللساني السويسري فردنان دي سوسير «De Saussure» على التمييز بين هذين المفهومين : اللغة والكلام باعتبار أن اللغة رصيد كلّ المتكلمين والمخزون الجماعي، وأن الكلام مظهرها المستعمل في مستوى الفرد. والعنصران متفاعلان متلازمان. ولاشك أن هذه النظرية نظرية أم في اللسانيات الغربية الحديثة.

فضلا عما توحي به منها المصطلحات العامة الواردة في المقدمة، مثل «العرب، الأسماء، الأفعال، البناء، الألسن الخ» وهي من مميزات اللغة عموما.

فمفهوم الكلام يؤكد أن الخليل قد أدرك الصلة بين اللغة والكلام. وهو يعتبرهما محور قضيته. وغايته منها في مرحلة أولى وضع معجم مستعمل، أساسه كلام العرب الموجود بالفعل. فهو مهتم بالكلام أي بالأداء (24) الفعلي للغة. ونحن لا نجازف إن قلنا إنه كان على وعي بالصلة القائمة بين اللغة والكلام، مما سيتأكد في الرؤية الثالثة بالخصوص، عندما سيسعى إلى الإحاطة برصيد اللغة الكامل وما فيه من مستعمل ومهمل.

المقاربة الثانية تنطلق من الوصف لواقع الكلام العربي لتقدم لنا مفهوما لسانيا آخر هو مفهوم البنية الكمية في كلام العرب برمته. فلقد قسم تلك البنية الى : بنية دنيا (ثنائية) وبنية وسطى (ثلاثية) وبنية قصوى (رباعية وخماسية). فالكلام العربي يستحيل أن يخرج عنها، وإلا استحال تصور رصيده النّظريّ الأقصى أو المهمل ويعني به الموجود بالقوة كما سنبين ذلك. ولقد ضرب لكل بنية بأمثلة منها : قَدْ -ضرب - عقرب- سفرجل. وقال : «وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف».

اعتمد الخليل الوصف مقاربة ثالثة ليستخرج من البنية مفهوم الكلمة. وقد عبر عنها بالاسم والفعل مع ذكرها صراحة بغية تبيان عناصرها وهي : الابتداء والحشو والوقف، باعتبار أن الكلمة المعجمية (المدخل) ثلاثية أساسا، مما سيوضحه الصاحب بن عباد، وهو من أتباع مدرسة الخليل في معجمه المحيط. فلقد قال الخليل في هذا الشأن : «الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به الكلمة، وحرف يوقف عليه». وقال «وحشيت الكلمة بالميم». فالخليل قد استخرج لنا التعريف المعجمي البحت للكلمة. وهو مفهومها البنيوي الأساسي المركزي الذي يتفرع عنه كلّ شيء بالزيادة والنقصان. وهي نظرية بصرية تدعمها التجربة الإحصائية المطبقة على العربية، ويؤيدها سيبويه تلميذ الخليل بقوله في الكتاب «الثلاثي متمكن في العربيّة». فالقرآن الكريم مثلا لا

(24) وتعبر عنه اللسانيات الحديثة التوليدية ب Performance.

يحتوي إلا على 15 كلمة ثنائيّة. وستؤول هذه البنية عند ابن فارس في المقاييس إلى اعتبار أن كلّ ما زاد على الثلاثي ليس أصلا بل هو منحوت (25) مما عساه أن يؤجج جذوة الخلاف بين الكوفة والبصرة - وابن فارس كوفي المنزع - في شأن هذه القضية.

نستخلص من هذه الرؤية الأولى أن الخليل زودنا بأربعة مفاهيم تستحق العناية وهي : اللغة والكلام، والبنية والكلمة. وهي مترابطة حسب تسلس كمي وكيفي، مما يوحي بأنها تكون في ذهن الخليل أساسيات نظريته ومفاتيح لسانية معجمية. والملاحظ أنه سيعتمدها فيما سيأتي ليتوسط بها إلى مفاهيم جديدة تتكون منها جميعها عناصر نظرية ومعجمية.

في الرؤية الثانية من مقدمة العين يزودنا الخليل كذلك بمقاربتين منهجيتين ومفهومين لسانيين أساسيين قوامهما اللغة والكلام والبنية والكلمة السابقة الذكر.

فلقد اعتمد على علم الفسيولوجيا في مقارنته الأولى، وبالتالي على الجهاز الصوتي الإنساني ليبرز لنا مفهوم الصوت اللغوي أو الصوتم (26) ووظيفته بالنسبة للمفاهيم السابقة الملتحمة به الشاملة له، وذلك بالتطبيق طبعا على العربية. فالأصوات اللغوية العربية لها مثلها مثل أصوات اللغات الأخرى وظيفة تمييزية دلالية ضمن الكلمة والكلام، تفرضها مخارجها وأوصافها، وإن كان لم يضرب لنا أمثلة على ذلك في مستوى الكلام العربي الفصيح ليقربنا من عملية التعويض (27) البنيوي اللساني الذي يجعلنا نميز بين هُزِلَ وهَزِلَ وشَرْقٌ وبَرْقٌ وَوَعْدٌ وَوَفْدٌ . . . الخ، وندرك دور هذا المفهوم في المعجم، وفي ضبط دلالته باعتبار هذا التمايز الصوتي الدلالي، وذلك ما سيتداركه باعتماد الصوت اللغوي في التمييز بين العربي والأعجمي. وهذا يدل على أن الخليل لم يحدثنا عن ذلك عفوا، بل للتركيز على دور الأصوات اللغوية في ضبط دلالة الكلمة المعجمية أو المدخل، وفي

---

(25) محمد رشاد الحمزاوي : المعجم العربي (نظرية النحت العربية المغبونة)، ص 247-264.

(26) ويعني به في اللسانيات الغربية الحديثة مصطلح «Phonème».

(27) يظهر ذلك في تعويض صوت لغوي بآخر لإدراك ماترتكز عليه الأصوات من وظائف في تمييز الدلالات والمعاني في اللغة عموما وفي المعجم بالخصوص. والملاحظ أن الخليل اعتمد ذلك في مقدمة العين للتمييز بين الكلمة العربية الفصيحة والكلمة المبتدعة المحدثة والأعجمية.

التمييز بين لغة وأخرى، كما عبر عن ذلك ابن جني لاحقا حسب نظرة لسانية عامة وقانون لساني كوني، إذ قال : «إن اللغة أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم» (28).

وتأتي المقاربة الثانية معتمدة هذه المرة على المقارنة والمقابلة الصوتية لتؤكد ما سبق وتدعمه بالمثال، ولتطرح مفهوم التمايز بين كلام العرب وكلام غيرهم من الأمم التي صبت بحارها كلها في محيط الحضارة العربية الإسلامية. ويبدو أن الخليل قد استقرأ ذلك من محيط البصرة الصاخب -. فقال : «إنك لست واجدا من يسمع في كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية (29) واحد أو اثنان أو أكثر». من هذا المفهوم الاساسي يستدرجنا الخليل إلى مفاهيم أخرى منها مفهوم الكلمة المحدثة المبتدعة (30) أي غير العربية، ويحتمل أن تكون المولدة (31) كذلك. وهي الخالية من الحروف الذولقية والشفوية أو المصدرة ب «نر» فيقول «فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة». ويؤكد على الخصائص الصوتية للكلمة الأعجمية بأن تساءل : «فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟» حتى يمكن له إقرار مبدأ لساني عام مقارن يطلق على العربية وعلى غيرها من الألسن فيقول : «وليس في شيء من الألسن ظاء غير العربية ولا من لسان إلا التنور فيه تنور»، وإن كان في هذا نظر.

نستخلص من هذه الرؤية الثانية من مقدمة «العين» أنها تمثل الخطوة الثانية لنظرية الخليل المعتمدة على الخطوة الأولى من الرؤية الأولى ومفاهيمها. فلقد زودنا بغنيمة جديدة وافرة تؤكد على المعطيات التالية :

---

(28) ابن جني : الخصائص 1/ 33 طبعة 1371هـ/ 1952، تحقيق محمد علي النجار.

(29) وتتلخص في الأصوات الذولقية والشفوية الواردة في جملة «فرمن لب»

(30) أطلق الخليل على الكلمة غير العربية مواصفات عدة، وهي مواصفات لسانية منها المحدثة نسبة لحداثتها بالنسبة للعربية والمبتدعة نسبة إلى جدتها.

(31) إن مفهوم «المولد» يحتاج إلى نظر. فهو مفهوم غامض ومضطرب ومطاطي يشمل العربي وغير العربي، ومازال موضوع جدال وجدل لم تحط به إلى الآن دراسة معجمية جدية لضبط حقله في المعجم، أنظر محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1988 ص 184: 265 - 269، 337 - 338، 516 - 517.

1- دور الأصوات ووظيفتها التمييزية الدلالية في الكلمة والكلام، والمعجم وبالتالي في اللغة.

2- التمييز بين الفصاحة العربية والعجمة في الكلام والمعجم بالاعتماد على الوصف والمقارنة.

3- إقرار مبدأ التداخل اللغوي (32) في كلّ حضارة رائدة باعتبار المثاقفة (33) وأبعادها اللغوية والأنتروبولوجية والثقافية. فيكون من طبيعة كلّ لغة - ومن طبيعة كلّ معجم كذلك - أن تعطي وتأخذ بنسب متغيرة، أي أن تكون لغة مصدراً أو لغة هدفًا(34) حسب تعبير المحدثين. وذلك مادعا الخلية إلى إقرار مبدأ لساني أعم من كلّ ما سبق يتلخص في إقرار علم اللغة المقارن أساسا من أسس المعجم ولا سيما المعجم التاريخي مما يدعونا إلى أن نعتبر أن الخليل كان من رواد علم اللغة المقارن انطلاقا من مقارباته اللغوية واللسانية المتميزة والمتعلقة بكلّ «الالسن» كما جاء ذلك بصريح عبارته.

الرؤية الثالثة من مقدمة العين مربوطة ربطا عضويا بسابقتيها. وليس ذلك غريبا لأن الخليل وضع نصا واحدا يشمل مقدمته كلها. ولقد قسمناها إلى ثلاثة أجزاء لندرج فيها ما يستلزمه مشروع قراءتنا من مفاهيم لسانية حديثة. فما هي مقارباته المنهجيه المعتمدة والمفاهيم التي يريد أن يصل إليها؟

---

(32) ونعني به ما سمي قديما بالمعرّب. إلا أن مصطلح «التداخل اللغوي» مصطلح لساني أشمل لأنه مفهوم يطلق على كلّ لغة تأخذ من غيرها أو تعطيها. والمعرب لا يطلق إلا على ما تأخذه العربية من غيرها. وهو بالتالي جزء من التداخل اللغوي.

(33) ونعني بها تداخل ثقافتين إحداهما غالبة والثانية مستهدفة ويطلق عليها بالفرنسية مصطلح «Acculturation» . وهو يعتبر قانونا لسانيا عاما إذ لا تسلم منه لغة واحدة سواء بالأخذ أو بالعطاء.

(34) في المثاقفة اللغوية تسمى اللغة الرائدة التي تعطي لغيرها اللغة المصدر (ل.م) وتسمي اللغة الآخذة اللغة الهدف (ل.هـ) ويطلق المصطلحان كذلك على اللغة المترجم منها وعلى اللغة المترجم إليها.

لقد سعى إلى أن يتصور مفاتيح المعجم الأساسية من خلال نظمنة (35) كمية ورياضية متعمدة عناصرها مترابطة. فلقد ركز بالخصوص على:

أ - ضبط أصوات العربية ضبطا كميا «فهذه تسعة وعشرون حرفا منها أبنية كلام العرب»، لتمييزها عن غيرها، وبالتالي ضبط البنى، أي المداخل المعجمية التي تستخرج منها.

ب - تصريفات تلك البنى تصريفا رياضيا لتصور قدرة استيعاب معجمه، حيث قال «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف... والكلمة الثلاثيّة تتصرف... والكلمة الرباعية تتصرف... والكلمة الخماسية تتصرف...».

ج - تعيين الحقلين المعجميين اللذين تجمع منهما اللغة المدورسة، وهما حقلا «الواضح والغريب».

حيث قال «حتى يستوعب كلام العرب الواضح والغريب»، من دون تفضيل ولا تمييز بين الفصيح وغيره. إن هذه المعطيات الثابتة والمطردة التي فصل فيها الخليل في مقدمة كتاب العين، ستمكنه من استخلاص مفاهيم وتطبيقات معجمية تتمثل في :

1 - استنباط نظام صوتي معجمي لكتاب العين من النظام الصوتي اللغوي العربي العام بالاعتماد على الجهاز الصوتي البشري الثابت، وعلى وجهة صوتية مبررة تعتمد مخرج الصوت من الحلق إلى الشفتين. وكان يمكن له أن يعكس ذلك. وعلى هذا الأساس ابتدأ بالعين وسمى كتابه العين تأييدا لذلك. وبحسب هذا النظام ضمن أن ترتب مداخل المعجم ترتيبا عاما موحداً مهما كانت بنية المدخل المعتمد.

2 - التأكيد على مفهوم البنى الثنائية والثلاثيّة الرباعاية والخماسية، يقر مفهوم البنى العميقة المعجمية التي تعتمد عليها مداخل المعجم العربي.

3 - استقراء مفهوم البنى السطحية التي تنشأ من تصريفات البني العميقة وتحويلاتها، وذلك بالاعتماد على عملية التقليب (التحويلية) الرياضية والتي يمثل لها في المستوى التطبيقي بالتحويلات اللغوية التالية :

---

(35) وهي ترجمة لـ «Systematisation بالفرنسية وSystematization الانجليزية. وغايتها اعتماد نظام محكم مبرر لاستيعاب المعارف والمعلومات وتبليغها تبليغا وافيا.

(1) و1 و2 - و3 = ضرب (4) و2 - و3 - و1 = ربض

(2) و1 و3 - و2 = ضبر. (5) و3 - و1 - و2 = بضر

(3) و 2 - و1 - و3 = رضب (6) و3 - و2 - و1 = برض

إن عملية التقليب التحويلية من «ضرب» الثلاثي قد ولّدت 6 دلالات جديدة بفعل تحويل مراكز الأصوات.

ويمكن أن نمثل لهذه العملية رياضيا في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي بما يلـــي:

ن! = ن x ن - 1 1

ومنها نطبق على البنى الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية وحتى السداسية. فنحصل على التحويلات التوليدية لكلّ بنية :

!2 = 1 x (1-2) = 2=1x2 (انظر/قد/في نص الخليل)

!3 = 3 x (1-3) x (2-3) = 6 = 1x2x3 (انظر مثال /ضرب/في نص الخليل).

!4 = 4 x (1-4) x (2-4) x (3-4) = 24 =2x3x4 (أنظر مثال/عقرب/ في نص الخليل).

!5 = 5 x (1-5) x (2-5) x (3-5) x (4-5) = 120 = 2x3x4x5 (انظر مثال/ سفرجل/ في نص الخليل).

!6 = 6x(1-6)x(2-6)x(3-6)x(4-6)x(5-6) = 720=1x6x2x3x4x5

4- استنباط مفهوم المعجم اللغوي المكتمل المثالي الذي يستوعب اللغة كلها والذي تتفرعُ مداخله إلى مفهومين جوهريين : المهمل والمستعمل. فالأول يعني الموجود بالقوة من المداخل والثاني الموجود بالفعل منها.

5- إقرار مفهوم المعجم الوصفي التطوري الذي يستقرىء من اللغة صحيحها وغريبها. وهما يحيطان بكلّ مستويات اللغة المدورسة.

فهو ليس معجما معياريا تعليميا بل هو مشروع مفتوحٌ مثل اللغة التي لا تستقرّ على حال.

وبالتالي تضافرت آليات النظام الصوتي مع آليات البنية وآليات التقليب (36) لتوفر لنا معجما تبلغ مداخله أكثر من 12 مليون كلمة بين مستعمل ومهمل، يحيط باللغة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بدون إسقاط ولا إهمال ولا تكرار، لأنّ عملية التقليب تمسح كلّ الإمكانات والاحتمالات، ولا تفلت منها واردة ولا شاردة. فهو في نهاية الأمر معجم مثالي (37) موضوع لمتكلّم مثالي، (38) فيمكن للمعاجم الأخرى أن تقيس عليه، وأن تسعى إلى أنْ تدرك نصيبا منه حسب منهجيات معينة وما تجمعه من رصيد للالتحاق برصيده الأعظم. ويبدو أن لسان العرب وتاج العروس لم يبلغا من رصيده المثالي إلا النزر القليل.

ونستخلص من الرؤية الثالثة الخليلية أن كلّ ما سبق صالح لأن يطبق على كلّ معجم من كلّ لغة مع توظيفات جزئية، لأن مقارباته ترتكز على قواعد لسانية عامة تصلح

---

(36) التقليب مصطلح لساني معجمي خليلي وقد فسر في النص النظري المعروض هنا، ويعني به تقليب الكلمة حسب وجوهها المختلفة حسب عدد حروفها المكونة لها. فالثنائي «شد» يقلب الى «دش» والثلاثي «ضرب» يقلب الى ستة أوجه . . . الخ.

(37) الخليل لم يطلق هذا المصطلح صراحة بل هو وارد ضمنيا في مفهومي المستعمل والمهمل. ويعني به المعجم النظري الذي يحيط، في إطار نظرية رياضية، باللغة كلها بدون إسقاط ولا إهمال ولا تكرار، ويشمل الماضي والحاضر والمستقبل، فهو معجم مفتوح. ونجد صدى لهذه الآراء عند الفرنسي مرتني صاحب النظرية الوظيفية في حديثه عن مفهوم «Lexemes» وعند الأمريكي شومسكي في «Competence». انظر في هذا الشأن محمد صلاح الدين الشريف : المعجم بين النظرية اللغوية والتطبيق، مجلة المعجمية عدد 2/ 1986 ص 15-30.

(38) المتكلم المثالي تصور نظري لمتكلم يحيط باللغة كلها. وقد تصوره الشافعي نبيا كذلك ابن فارس، وأوحى به الخليل رياضيا من خلال عملية التقليب، واعتبره الأمريكي شومسكي - وهو مهندس رياضي كذلك - الإنسان القادر على نظم عدد لا يحصى من الجمل وفهمها. وهو تصور منهجي تقاس به قدرته اللغوية القصوى النظرية مقارنة بالنصيب الذي يمكن أن يؤديه منها في الاستعمال والواقع. وبعبارة أخرى يتميز كلّ متكلم بقدرتين : قدرة الاستيعاب ويمكن أن تكون مثالية نظريا لا يحدها حد، وقدرة الأداء وهي عملية نسبية مقارنة بالقدرة الأولى. وتختلف هذه القدرة الثانية من إنسان الى آخر بحسب معلوماته وثقافته وتخصصه الخ. وبالتالي يتكيف معجمه حسب القدرتين المذكورتين، فلسان العرب لم يبلغ من الـ12 مليون كلمة (أو مدخل) المقصودة في معجم الخليل الا 90 ألف مدخل. أما تاج العروس فانه لم يبلغ منها الا 120 ألف مدخل.

لكل لغة، وبالاحرى اللغة العربية لغة التنظير والتطبيق والمعجم. ويجوز لنا في هذا الشأن أن نسعى مثلا في مستوى مفهومي المستعمل والمهمل إلى أن نقارنهما بما جد اليوم في اللسانيات الحديثة التي اعتمد فيها الألمانيّ Humboldt والأمريكي Chomsky مفهومين متقاربين منهما، وهما مفهوما القدرة والأداء سواء في المعجم أو في النحو. وذلك ميدان خصب لمواصلة هذا المشروع من القراءة الذي طبقنا له على عينة سابقة (39).

ولقد نتج عن المنهجيات والمفاهيم الخليلية (40) نظرية الخليل المعجمية ومصادراتها الجوهرية التي سبق لنا أن أبرزناها في مكان آخر من مؤلفاتنا (41) والتي تبين من خلال النصوص المدورسة نظرية متكاملة منهجا ومفهوما وتطبيقًا، لانها شملت عناصر الجمع والوضع القصوى في حدودها ووظائفها وتفاعلها في بناء المعجم النموذج، ولأنها أعتمدت على ثوابت ومطردات : فالمقاربة تقر المفهوم النظري أو التطبيقي والمفاهيم تتواصل سلاليا فوقية أو تحتية وتؤسس بنيانا مهيكلا متكونًامن عشرة عناصر أساسية تظهر في الرسم التالي :

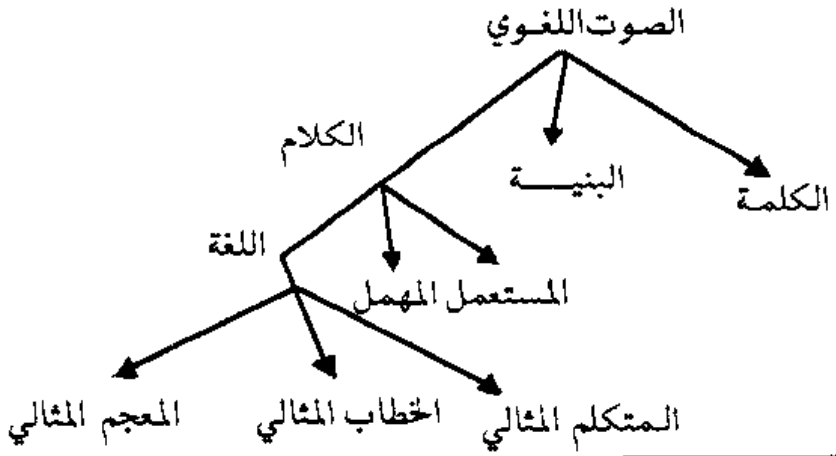

(٣٩) محمد رشاد الحمزاوي : «قدرة الاستيعاب في المعجم» في المعجم العربي اشكالات ومقاربات ص 297 - 308.

(40) بينا ثراء تلك الآليات المفهومية المتعددة التي تكون نظرية المعجم المثالي الخليلي، وذلك من خلال المفاهيم والمناهج المعروضة هنا، وهي تستحق أن يوضع لها معجم خاص يدل على حداثتها ودقتها.

(41) محمد رشاد الحمزاوي : النظريات المعجمية العربية، انظر المعجم العربي أشكلات ومقاربات، ص 215 وما بعدها.

فالصوت اللغوي أصل الكلمة والبنية اللتين تؤسسان الكلام المستعمل والمهمل الذي يؤول بجزئيه إلى اللغة. واللغة يحيط بها متكلم مثالي يستوعب لغته وكلامه معجم مثالي، يحيط بالخطاب الشامل. ويكون هذا المعجم مثالا لكلّ معجم في كلّ اللغات. ويطمح إلى أن يكون - حسب الخليل - أداة تستوعب الخطاب الإنساني إطلاقا، والخطاب العربي خصوصا، ومآثره الفكرية والثقافية والحضارية ماضيا وحاضراً ومستقبلا فالعلم لغة محكمة البناء (42) ، ونحن نقول اللغة معجم محكم البناء مثل معجم الخليل الذي لم يدّع الكمال.

فمن خصائص النظريات أن تكون كلية وطموحة ومفتوحة تولد الرؤى والمفاهيم في مراحلها المختلفة مهما كانت سلبياتها. ولاشك أن لنظرية الخليل سلبيات عملية قد ذكرناها في مؤلف سابق ((43). وليس من الضروري للنظرية، مهما كانت، أن تحيط بالصواب المطلق كله، بل المهم ان تنفرد برؤية مبررة تستكشف من القضية المطروحة زاوية معينة، تستوجب أن تقاس منزلتها من الصواب. والعلم تقدم وسيتقدم بما يتوفر له من عناصر مختلفة ومتكاملة لبناء المعرفة القويمة مثلما فعل الخليل.

---

(42) قولة تنسب إلى الفيلسوف الفرنسي TAINE.

(43) محمد رشاد الحمزاوي : العربية والحداثة دارالغرب الاسلامي، بيروت 1986 ص 161-164.

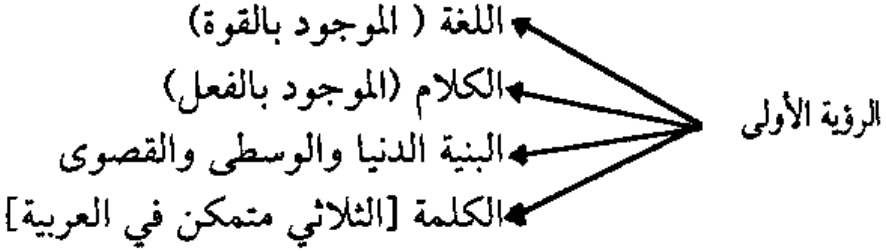

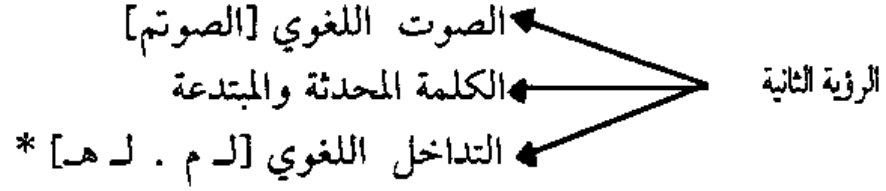

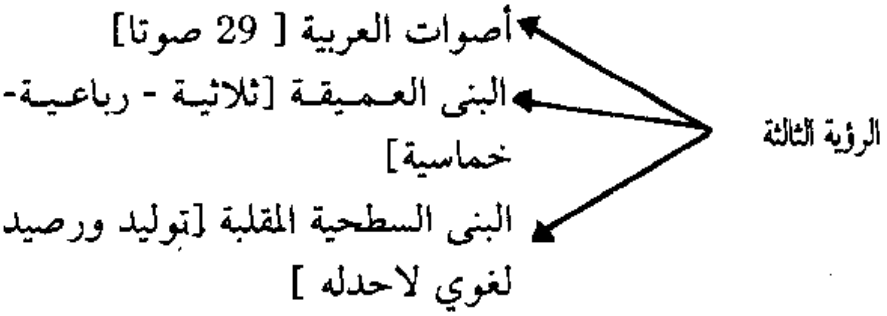

* لـ م = لغة مصدر، لـ هـ = لغة هدف.

التقليب مـــن العميـــق إلـــى
السطحـــي المولـــد
ض - ر - ب

أ - ضرب = 3-2-1	د - ربض = 2-3-1
ب - ضبر = 2-3-1	هـ - بضر = 3-1-2
ج - رضب = 3-1-2	و - برض = 1-2-3

القاعـــــدة الرّياضيـــــة العامّـــة

ن ! = ن x ن - 1 1

الثاني : 2! = 1 x (1-2) = 1 x 2 = 2 (انظر : قد - دق)

الثلاثي : 3! = 3 x (1-3) x (2-3) = 1x2x3 = 6 (انظر : ضرب)

الرباعي : 4! = 4 x (1-4) x (2-4) x (3-4) = 1x3x2x4 =24 (انظر : عقرب)

الخماسي : 5!x(1-5)x(2-5)x(3-5)x(4-5) = 1x4x3x2x5 =120 (انظر : يفرجل)

السداسي : 6! x(1-6)x(2-6)x(3-6)x(4-6)x(5-6)=1x6x4x3x2x6=720

ملخّص النظريّة

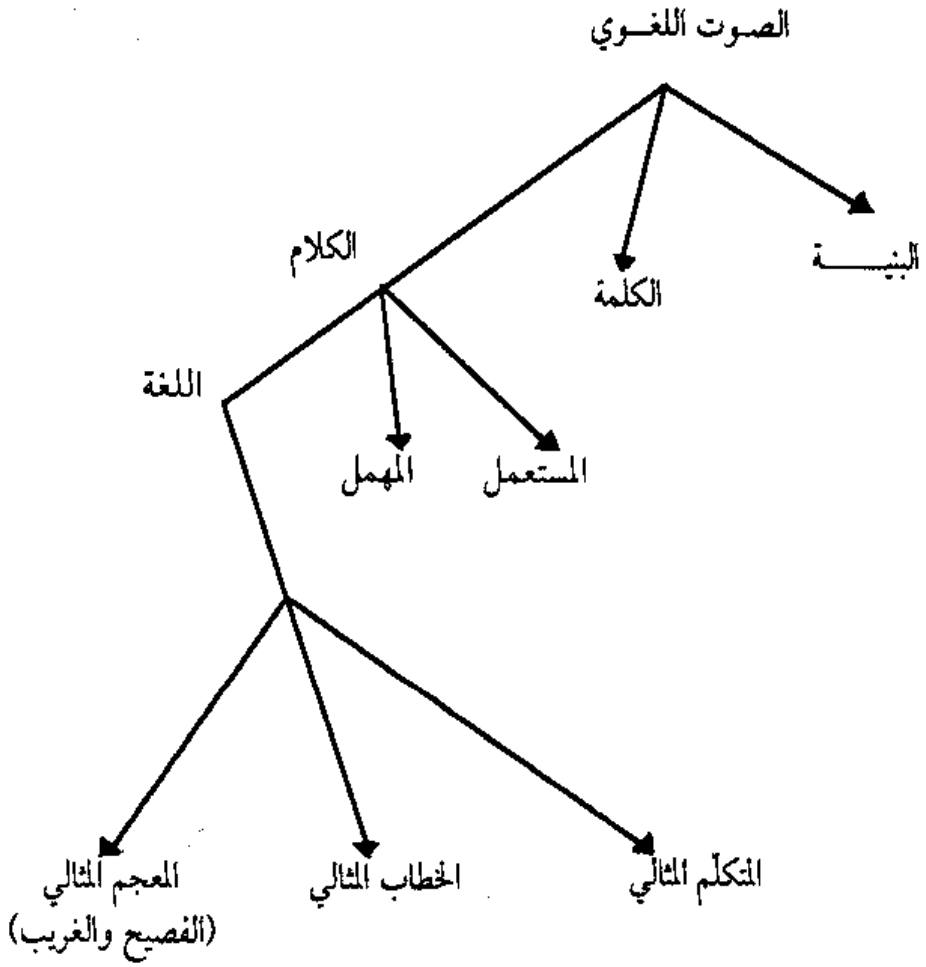

محتوى المعجم المثالي :

«اثنا عشر ألف ألف وثلاث مائة ألف وخمسة آلاف وأربع مائة واثني عشر».

محمد رشاد الحمزاوي
جامعة السلطان قابوس كلية الآداب عمان